المحاضرة الثامنة

سحر العبقرية

اجمات الكلام حتى اليوم على امور كانت على غير قصد مني شبه تمهيد لدراسة شعرائنا الثلاثة : ابي الطيب وابي عبادة وابي تمام، وافق التمهيد مديد . فأنا اخشى اذا مضيت في هذه المقدمات ان تنقضي سنتنا ولم نجالس احداً من شعرائنا الثلاثة ولا احطنا بشيء من وشي طباعهم وصوب قرائحهم فأرى ان اجتزيء بهذا المقدار من التمهيد وان ادرس واياكم بعد اليوم اول الشعراء الذين ذكرتهم واريد به اباالطيب المتنبيء ماليء الدنيا وشاغل الناس وقبل الكلام على المتنبي لا اجد لي مندوحة عن الكلام على الشعر والشعراء على وجه عام دون التعمق في دقائق الشعر وما يتعلق به فنه فما هو الشعر ومن هم الشعراء .

الشعر ومعناه في اليونانية . الابداع انما هو في متعارف الاصطلاح الفن الذي يستخدم الالفاظ المتناسقة في تصوير الجمال ، اي في تصوير افكار وعواطف لاصقة بما يناسبها من الصور . الغرض من الفنون بمجامعها تصوير الجمال وقد علمتم ان تصوير الجمال انما هو الافصاح عن فكر من الافكار او عن عاطفة من العواطف على ان تكون هذه الافكار والعواطف قد كسيت مايشاكلها من ضروب اللباس ، والتأليف بين الافكار والعواطف وبين قوالبها انما هو من عمل الخيال اي خيال اصحاب الفنون ، فاذا خطر على بال واحد منهم موضوع من الموضوعات وقع في حالة اشبه شيء بالوحي يرتفع فيها الى جو اعلى من جو العامة ويحلق في سماء امد من سمائهم فيخترق الموضوع ذهنه وفي هذه الاثناء تنكشف الافكار له في شكلها الحسي فينزل الوحي عليه .

وعلى هذه الصورة ، الفنون كلها متماثلة وانما تختلف باختلاف الوسائل التي يتوسل بها اصحابها الى بيان اغراضهم ، فالمصور يلجأ الى الخطوط والألوان ، وصاحب الموسيقى يرجع الى الالحان والاصوات ، والشاعر يعمد الى الالفاظ . قال اناتول فرانس في سحر الالفاظ : فلق الشعراء لديذ ، فلا ترثوا لهم ، ان الذين يغنون يعلمون كيف يخلعون حلة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بيضاء على سواد قنوطهم ، فلا سحر الا سحر الالفاظ فالشعراء يتعزون كما يتعزى الاطفال وما عزاؤهم الا الصور » .

فالشعر لا يتم بالأوزان والقفية وانما يتطلب صوراً لانه بالصور وحدها يستطيع ان يخلع على الافكار والعواطف لباساً محسوساً .

[متى يكون الشعر]

لا يكون الشعر الا اذا جمعت الفاظ متناسقة وكانت هذه الالفاظ تتضمن صوراً تناسب المعاني التي تصورها ، فلا تزداد الافكار والصور تناسباً ولا تزداد الالفاظ من جهة ثانية تناسقاً ، سواء أكان هذا التناسق في الالفاظ نفسها ام كان في الافكار وفي الالفاظ التي تمثلها الا ازداد الشعر كمالا .

قد يكون الشعر في منـدوحة عن الاوزان طالما ان الشاعر يستطيع ان ينسق كلامه من دون وزن ، الا ان الاوزان نافعة لان الالفاظ الموزونة اشد تناسقاً دع عنك ان هذه الاوزان تجعل لكل نوع من أنواع الفكر والعاطفة لغة خاصة فلكل جنس من اجناس العروض مقام واذا امكن ان يكون شعر دون ابيات موزونة ولا اقول دون تناسق اواذا امكن ان تكون ابيات موزونة دون شعر فلا بدلنا في كل حال من اعتبار الاوزان قال شينيه في كتابه (علم الجمال) البيت من الشعر ما هو الا لباس ولكنه لباس طبيعي لطيف تلبسه الفكرة الشعرية ، البيت من الشعر جناح يعين هذه الفكرة على الارتفـاع من الارض ويحول دون تلطخ بردها القشيب بالوحل ، البيت من الشعر انما هو المثل الاعلى للكلام .

وقال ابن رشيق في العمدة :

« فاذا اخذه — اي اذا اخذ الشعر — سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشتاته وازدوجت فرائده وبنـاته واتخذه اللابس جمالاً والمدخر مالاً فصار قرطه الاذان وقلائد الاعناق واماني النفوس واكاليل الرؤوس يقلب بالالسن ويخبأ في القلوب مصوناً باللب ممنوعاً من السرقة والغصب .

[ما هو ارتباط الشعر بالموسيقى]

الغناء الذي يزيد في تناسق الكلام يزيد ايضـاً في كمال الشعر وقد كانت الشعر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والموسيقي في بدء الجماعات متحدين فكان كل شاعر صاحب موسيقي على ان اتحاد الموسيقي والشعر لا ينفع الشعر الا اذا كانت الحان الموسيقي تصاحب في الشعر الالفاظ وحدها اما اذا حالت الموسيقي دون فهم الشعر امتنع الشعر ولم يزول الناس الموسيقي في الاصل للموسيقي ذاتها ولكنها كانت خادمة الشعر ولهذا لم تتكامل اغاني الامم في بدئها تكامل الموسيقي في عصرنا هذا .

وهنا لا بد لي من تلخيص هذا الامر : الموسيقي فن يختلف عن فن الشعر وان كانا يستخدمان الالحان في تصوير الجمال ، الا ان الموسيقي تستخدم الالحان للألحان ذاتها فغايتها العاطفة موصولة بالالحان ، فكل ماغرقت الموسيقي في تناسق الالحان وتجردت من الفكرة التي تصورها الفاظ هذه الالحان كانت الموسيقي متكاملة اما الشعر فانه على خلاف هذا الامر فهو يعتبر اللحن بمنزلة علامة لنقل الفكرة والصورة فاللحن ليس بغرض الشعر الحقيقي وانما حقيقة غرض الشعر الفكرة المحسوسة التي يمثلها اللحن للذهن .

للافصاح عن الفكرة والعاطفة مذهب آخر من الكلام وهو النثر ، فالشعر يختلف عن النثر من وجهين من حيث المعنى ومن حيث المبنى .

اما من حيث المعنى فالمنظوم من الكلام غرضه تصوير الجمال اي جعل الافكار محسوسة فهو يصور الجمال للجمال نفسه فلا تكون غايته الا اللذة ولكن النثر قد يكون من دون ان تجدوا فيه صيغة محسوسة للافكار ، واذا عني الكتاب في بعض الاحايين بالجمال فما هو الا ليحصلوا على منفعة ما ، فهم يستفيدون من سحر الجمال ما يمكنهم من التهذيب والاقناع وما شابه ذلك .

الشعر لا يعرض علينا الافكار المجردة كما يفعل النثر ولكنه يعرض علينا حقائق هذه الافكار المحسوسة حتى نكاد ندرك الافكار ذاتها وظواهر صيغها ، كل هذا في شكل مرصوص كأنه بناء مبني لا خلل فيه فاذا قلنا الربيع فانا نفهم الذي يراد بكلمة الربيع ولكننا لا نتصور شيئاً في اذهاننا واما اذا سمعنا البحتري يقول :

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد ان يتكلما

ادركنا الفكرة نفسها اي فكرة الربيع ولكن سحر العبقرية قد بعث في هذه الفكرة حياة حتى كأننا بمحضر شخص باسم الثغر ضاحك الوجه قد هم بالكلام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فالشعر غرضه ان يعرض الفكر في معرض ظاهر فهو يتحامى التجريدات ومصطلحات العلم واستدلالات الفلسفة التي هي من خصائص النثر فهي تجعل الشعر في عالم يختلف عن عالم الخيال وعالم الصيغ المحسوسة ، قال اناتول فرانس :

« يحق للعلم ان يطلب الينا ان يجتهد ذهننا و يتنبه فكرنا ولكن الفن ليس له هذا الحق ، شأن الفن ان يلذك و يسرك ليس له غير هذا الشأن ، ولكنهم في هذا العصر قد خلطوا وخبصوا فأحبوا ان يطبقوا في نتائج الأدب ما طبق من الطرائق في العلم على انه بين انشودة من الاناشيد و بين الهندسة الوصفية بون عظيم فالشعر غير الهندسة وما ينبغي لملاك الفن ان تكون متعبة للذهن .

ولست ادري الى اي غرض رمى ابن رشيق في كلامه لما قال :

« والشعر مأخوذ بكل علم مطلوب بكل مكرمة لاتساع الشعر واحتماله كل ما حمل من نحو ولغة وفقه وحساب وفريضة » .

اما ان يكون الشاعر مثقفاً فهذا لا بد منه ، واما ان يحمل الشعر ما تحمله اياه من فقه وفريضة وحساب فهذا مالا قدرة له عليه ، فالشعر شيء والجمع والطرح شيء آخر .

قلت : الشعر يختلف عن النثر من حيث المعنى وهو يختلف عنه من حيث المبنى فلكل فكر من الافكار صورة تناسبه من الكلام والفكرة الشعرية تختلف عن الفكرة النثرية فوجب ان يكون لكل من الشعر والنثر لغة خاصة قال ابن رشيق :

«وللشعراء الفاظ معروفة وامثلة مألوفة لا ينبغي للشاعر ان يعدوها ولا ان يستعمل غيرها كما ان الكتاب اصطلحوا على الفاظ باعيانها سموها : الالفاظ الكتابية لا يتجاوزونها الى سواها .

فلشعراء هم اساتذة اللغة ، ان لم الفاظاً اشرف من الفاظ الكتاب فهم يستعملون كلاماً اندر واقدم و يولدون الفاظاً وتراكيب كتوليد امريء القيس لهذا التركيب بعيدة مهوى القرط او كتوليد غيره من الشعراء .

هذا موجز القول في الشعر وما اظن اني بلغت الغاية في الكلام عليه فان في الشعر شيئاً غير تناسق الالفاظ وغير تناسق المعاني والصور ، ان في الشعر سراً روحانياً يدركه الذي يزاوله وقد لا يدركه غير الذي يزاوله وهذا السر الروحاني هو الذي يجعل الشعر شعراً يهز النفوس ويحرك الطباع ، ما اجمل قول صحار العبدي لمعاوية وقد قال له معاوية :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما هذا الكلام الذي يظهر منك فقار صحار : « شيء تجيش به صدورنا فنقذفه على السنتنا . نعم الشعر شيء والشعر كل شيء ولكن ما هو هـذا الشيء ان هو الا وحي يوحى ، فما الاوزان وما القوافي وما التنسيق ، ان في الشعر شيئاً لاتهبه صناعة وانما تهبه الطبيعة وحدها ، تلهمه الهاماً فيطفح على خاطر صاحبه ، فيقذفه على لسانه فمن كان الشعر غير مناسب لطبيعته وغير ملائم لقريحته فليسمع ما قاله له ابن عبد ربه :

« فلا تمض مطيتك في التماسه ولا تتعب نفسك الى انبعاثه باستعارتك الفاظ الناس وكلامهم ، فان ذلك غير مثمر لك ولا مجد عليك ما لم تكن الصناعة ممازجة لذهنك وملتحمة بطبعك ، واعلم ان من كان مرجعه اغتصاب نظم من تقدمه واستضاءته بكوكب من سبقه وسحب ذيل حلة غيره ولم تكن معه أداة تولد له من بنات ذهنه ونتائج فكره الكلام الحزم والمعنى الجزل لم يكن من الصناعة في عير ولا نفير » .

من هذا كله تستخلصون ان الشعر قد ركب في الطبع وامتزج بالنفس فالطبع هو العامل الاكبر في الشعر ولعمري كيف يكون الشاعر رقيقاً اذا قدت طبائعه من الصخر . ونحت قلبه من الحجر ، ام كيف يكون ظريفاً اذا نشـأ على الغلظة والفظاظة وطبع على فتور الذهن وجمود النفس ، فالناس كلهم يستطيعون ان يتكلفوا الشعر وما كل شعر يقولونه خالد على وجـه الدهر فاذا لم يكن الشعر ابن الوحي والالهام ذهب جفاء ولم يمكث في الارض .

هذا هو الشعر ، هذا هو سحر العبقرية فمن هم الشعراء من هم هؤلاء السحرة فاذا اردتم ان تعرفوا من هم الشعراء فاسمعوا ما قاله فكتور هوغو :

من الخطإ لا بل من الجناية ان يخطر ببال الاديب انه يحق له ان يكون بمعزل عن مصالح قومه ورغائبهم ، وان يعدل بقريحته عن التأثير في اهل عصره وابناء زمانه وان ينفرد بحياته فلا يكون له عمل في البنيان الاجتماعي ، فمن الذي يخلص النية في هذه الاعمال الجليلة غير الشاعر ، اي صوت يعلو في العواصف غير صوته ، ام اي وتر يستطيع ان يخفف من شدة العواصف غير وتر قيثارته ، فمن الذي يقتحم الفوضى فيذهب بمقابحها ويهجم على الاستبداد فيدرج بمكارهه ، وقديماً كان الشاعر صاحب الامر النافذ في الجمع بين الشعوب والملوك وحديثاً له الامر في التفريق بينهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فاذا علمتم مكانة الشعراء في المجتمع البشري ادركتم معنى احتفال قبائل العرب في القديم بشعرائهم قال ابن رشيق :

كانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الاطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون في الاعراس، ويتباشر الرجال والولدان لانه حماية لاعراضهم وذب عن احسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد او شاعر ينبغ فيهم او فرس تنتج . فممن حمى قبيلته زياد الاعجم وذلك ان الفرزدق همّ بهجاء عبد القيس فبلغ ذلك زياداً وهو منهم فبعث اليه : لا تعجل وانا مهدٍ اليك هدية فانتظر الفرزدق الهدية فجاءه من عنده :

فما ترك الهاجون لي ان هجوته ... مصحّاً اراه في اديم الفرزدق
ولا تركوا عظماً يرى تحت لحمه ... لكاسره ابقوه للمتعرق
سا كسر ما ابقوا له من عظامه ... وانكت مخ الساق منه وانتقي
فانا وما تهدي لنا ان هجوتنا ... لكالبحر مهما يلق في البحر يغرق

فلما بلغته الابيات كف عما اراد وقال :

لا سبيل الى هجاء هؤلاء ما عاش هذا العبد فيهم .

وكيف لا تحتفل العرب بشعرائها وهم الذين يصورون الحق في صورة الباطل ويصبون الباطل في قالب الحق فاذا قالوا نجحت مقالتهم في القلوب ، قال اناتول فرانس :

الشاعر ملك ، الشاعر اكثر من ذلك ، انه فوق أفق البشر ينزّل عليه آله الشعر هدوء الفكر ومسرات العقل انه يكتشف عوالم حديثه على نحو « كولومب » دون ان يزايل مركزه ويفتتح البلاد على نحو شارلمان من غير ان يتحرك من مكانه .

انه يجمع هوائج النفوس فيبعث حياة كل واحد من البشر ، يشعر بفرح كل من يفرح ويحس بألم كل من يألم في هذا العالم .

اي سلطان في يديه ! انه يجمع الالفاظ تلك الالفاظ الباطلة التي تقلب العالم . الشاعر يحكم على الاحياء وعلى الاموات .

انظروا الى الملك « مكبث » دل استقصاء المؤرخين على انه لم يقتل احداً وعلى ان زوجته كانت امرأة صالحة فلم يكن على يدي مكبث لطخة دم ولكن من الذي يؤمن بعد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اليوم بصلاح الزوجين الفاجعين . أراد شكسبير ان يصور الملك « مكبث » في صورة مجرم فظيع فلطخ يد زوجته لطخة حمراء فنظر الناس بعد تصوير « شكسبير » الى الملك « مكبث » والى زوجته فلم يروا في «مكبث» الا رجلاً قاتلاً غاضباً ولم يروا في زوجته الا انامل غميسة في النخيع . فلا يستطيع احد ان ينصفهما بعد كلام شكسبير وان ينظر في مظلمتهما مرة ثانية فقد نطق الشاعر واذا الشاعر نطق فلا تسمع العصور غير صوته[1] .

ما اعظم سلطان الشاعر ! ما انفذ كلامه ! من كلام الازدي على سيف الدولة انه كان جائراً على رعيته ، ومن كلام قاضي سيف الدولة ابي الحصين . كل من هلك فلسيف الدولة ماترك ، ولما قتل هذا القاضي في احدى المعارك داسه سيف الدولة بحصانه وقال لا رضي الله عنك فانك كنت تفتح لي ابواب الظلم ، وذكر بعض المؤرخين ان بني حمدان اكبوا على أبناء عمهم بني حبيب بصنوف الجور حتى مرق بنو حبيب من دينهم والتحقوا بالروم ، كل هذا نسي منسي ذهب جور سيف الدولة ان كان جائراً وذهب ظلمه ان كان ظالماً ولم يبق في اذهان بعض الناس من سيف الدولة الا الصورة التي صورها ابو الطيب المتنبي في شعره ستكر الايام وتمر العصور وسيف الدولة .

تشرف عدنان به لا ربيعة ... وتفتخر الدنيا به لا العواصم

هؤلاء هم الشعراء :

دخل ابن هرم بن سنان على عمر بن الخطاب فقال له من انت قال : ابن هرم بن سنان قال : صاحب زهير ، قال : نعم قال : اما انه كان يقول فيكم فيحسن قال : كذلك نعطيه فنجزل قال : ذهب ما اعطيتموه وبقي ما اعطاكم .

وما أريد بعد هذه الخاتمة ان اقول شيئاً فالشعراء هم الذين اذا اعطوا بقيت عطاياهم على شباب الايام وعلى هرمها .

دمشق : في ٢٨ كانون الاول سنة ١٩٢٩

---

(١) لا يراد بهذا الكلام ان حكم التاريخ على « مكبث » او على سيف الدولة قد بطل دفعة واحدة وانما يراد به تصوير تأثير الشعراء ومبلغ هذا التأثير .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net